أسوار مدينة سامراء في العصر العثماني

د. سعدي إبراهيم الدراجي
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

أسوار مدينة سامراء في العصر العثماني

د. سعدي إبراهيم الدراجي

المقدمة:

أُنشئت سامراء[١] عام ٢٢١هـ من قبل المعتصم بالله لتكون عاصمة للخلافة العباسية، ومعسكراً لجنده الأتراك الذين جلبهم لحماية الدولة بعد أن ضاقت بهم بغداد لتزايد عددهم ومعاملتهم السيئة لأهالي مدينة السلام[٢]، فأقتطع لأصناف الناس من العمال والصناع وإستدعى من سائر الأمصار الفنانين والمهرة الذين استوطنوها فساهموا في بنائها وتطورها حتى غدت في عقود قليلة من أعظم المدن آنذاك.

أمر الخليفة بتخطيط المدينة وجعل البناء فيها على الضفة الشرقية لدجلة وجانبي القاطول، وبدا بتقسيمها إلى قطائع فوزعها على القواد والكُتاب وكبار رجال الدولة والمقربين منه وعامة الناس. فباشر المهندسون العمل وأحضروا مواد البناء واستدعوا البنائين والعمال فأنشأوا قصر الخليفة وبيوتاً لبعض أصحابه وقادة الجيش، كما انشأوا معسكراً محاطا بأسوار، وبنوا الأسواق حول المسجد الجامع، وجعلوا شوارع المدينة الرئيسة واسعة تمتد موازية لنهر دجلة، بينها شوارع فرعية ودروب[٣]. وكان المعتصم قد كتب لولاته في مختلف الأقاليم والأمصار أن يوافوه بالمهرة والفنانين والصناع البارعين في مختلف المهن وسائر الصناعات وفي أثر ذلك "أشخص له البناؤون والنجارون والحدادون وغيرهم، وسيق إليه الساج وسائر أنواع الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وإنطاكية وسواحل الشام، وسيق إليه الرخام والعمد، وأقيمت باللاذقية دور صناعة الرخام"[٤]. يقول اليعقوبي (ت٢٩٢هـ) "ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب سرّ من رأى عقد جسرا إلى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنّة، حفر الأنهار من دجلة وصيّر إلى كل قائد عمارة ناحية من النواحي، وحمل النخل من

بغداد، والبصرة، وسائر السواد، وحملت الغروس من الجزيرة، والشام، والجبل، والرّيّ، وخراسان، وسائر البلدان فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرّمن رأى وصلح النخل وثبتت الأشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه، وحسن الريحان، والبقل، وزرع الناس أصناف الزرع، والرياحين، والبقول، والرطاب"[٥].

لعبت سامراء دورا كبيرا في مسيرة الحضارة العربية الإسلامية خلال عمرها القصير الذي امتد من ٢٢١هـ إلى سنة ٢٧٩هـ حين غادرها المعتمد على الله عائدا إلى بغداد. وخلال هذه الفترة القصيرة إستطاعت سامراء أن تصبح مركزا حضاريا عظيما أسهمت في تطور مختلف العلوم النظرية والتطبيقية من خلال ثلة من علمائها الأفذاذ. فضلا عما استحدثته من إبداعات في مجال الفنون والبناء من خزف امتاز ببريقه المعدني وزجاج وزخارف جصية ورسوم بالألوان المائية زينت جدران بيوتها ومنها انتشرت إلى مختلف أنحاء العالم آنذاك، وبشان البناء فقد اشتهرت بجامعها الذي ظل حتى نهاية القرن العشرين من أكبر مساجد العالم الإسلامي وأجلها عمارة لاسيما مئذنته الملوية الفريدة في تصميمها.

موقع سامراء:

تقع مدينة سامراء أو سر من رأى على خط طول ٤٣ درجة و٤٥ دقيقة، وعلى خط عرض ٣٤ درجة و٣٥ دقيقة. على الضفة الشرقية لنهر دجلة وتبعد نحو ١٢٠كم إلى الشمال من العاصمة بغداد. لهذا فهي تتمتع بجو معتدل في معظم أيام السنة حتى أصبح الناس يقصدونها بمواسم الزيارات لغرض النزهة والأصطياف، وكان قبل ذلك الخلفاء والوزراء ومن بعدهم الولاة يقصدونها في الربيع للصيد والنزهة([٦]).

لقد شيدت سامراء الحديثة فوق آثار العاصمة العباسية سر من رأى التي تمتد أطلالها على الضفة العليا لوادي نهر دجلة، يبلغ طول تلك الأطلال نحو ٣٤ كم تقع ثمان منها جنوب المدينة الحالية والباقي في شمالها. وقد وصف موقعها بأنه ذو فوائد كثيرة أهمها مكانها السوقي الذي ساعدها أن تكون وسط الإقليم للسيطرة على جميع أنحاء الدولة. وغناه بالمياه ولاسيما نهر دجلة الذي يحدها من جانبها الغربي، وقد سهل

لها النهر الاتصال بالمدن الجنوبية والشمالية من العراق ويسر لها التجارة. وموضع سامراء قد وهب للمدينة حماية ضد خطر الفيضانات التي كانت تهدد بغداد باستمرار [٧].

ومن المفيد ذكره أن الموقع الذي شيدت فيه العاصمة الجديدة كان معروفا منذ عصور قبل التاريخ، حيث كشفت التنقيبات التي قام بها كل من عالم الآثار هيرزفيلد في مطلع القرن العشرين ومديرية الآثار العراقية عن مواقع مهمة تعود إلى عصور قبل التاريخ ومنها تل الصوان القائم على الضفة الشرقية لنهر دجلة أملا للحصول على نتائج تحمل دلالات أثرية تكشف عن نوع الصلات الحضارية بين شمال وادي الرافدين وجنوبه خلال النصف الثاني من القرن السادس ق.م حيث تأسيس أولى القرى الزراعية في مناطق مختلفة من السهل الرسوبي. وكشفت التنقيبات في تل الصوان عن مستوطنه بخمس طبقات ترجع الثلاثة الأولى منها إلى أواخر العصر الحجري الحديث. ثم طور حسونه القديم والخامسة مع فخار طور سامراء[٨].

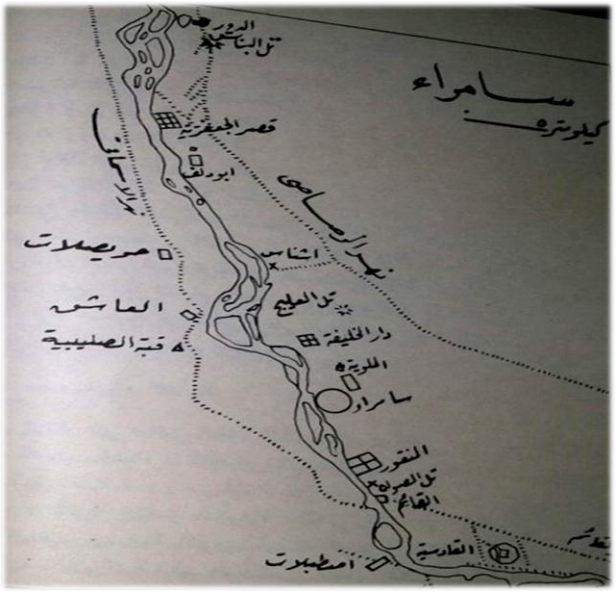

خارطة سامراء الأثرية عن طه باقر وفؤاد سفر

مدينة سامراء الحديثة:

يرتبط تأسيس سامراء الحديثة وتطورها العمراني بنشأة الروضة العسكرية التي ضمت ضريحي الإمامين علي الهادي والحسن العسكري (عليهما السلام). إذ تفيد المصادر أن المدينة القديمة المبنية في القرن الثالث الهجري أخذت تنحسر، وتُهجر أبنيتها بعد عودة الخلفاء العباسيين الى حاضرتهم بغداد. وبهذا الصدد يقول ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) "..... وخربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامراء وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها...."[٩]

ومن الطبعي ان ينشط العمران حول مرقد الإمامين بعد رحيل الخلفاء، فبنيت العمارات الخدمية وأنشئت الدور والمنازل العامة والمحال التجارية خدمة للزوار. والمعروف أن الإمام علي الهادي (رض) قد توفي عام ٢٥٤هـ/٨٦٨م ودفن في داره في قرية (عسكره) ثم دفن إلى جواره إبنه الحسن العسكري (رض) عام ٢٦٠ هـ/٨٧٣ م. و بعد أن هجرت مدينة سر من رأى، اخذ البناء يتسع حول مدفن الإمامين وزاد البناء باستمرار بحيث أصبحت قرية (عسكره) نواة لمدينة سامراء الجديدة[١٠].

تحصينات سامراء في العصر العثماني:

يبدو ان أقدم التحصينات التي شهدتها مدينة سامراء الحديثة كانت عبارة عن سور من طين وصف بانه شاهق الارتفاع وله ابواب. ففي عام ١٥٩٨م زار العراق ثلاثة أخوة من الرحالة الانكليز برئاسة أنتوني شيرلي، وبصحبته أخواه توماس وروبرت، فضلا عن ستة وعشرين رجلا آخرين، كانوا بطريقهم إلى بلاد فارس بقصد الحصول على تسهيلات وامتيازات للتجارة الانكليزية مع إيران، فنزلوا في الفرات من البيره حتى الفلوجة ثم زاروا بغداد ورحلوا إلى إيران مروراً بسامراء ووصفوا الأخيرة بقولهم "وفي وسط المدينة القديمة بنى الأتراك والعرب مدينة صغيرة محاطة بسور طيني شاهق الارتفاع"[١١] وأشار إلى أبواب المدينة وروضة الإمامين علي الهادي والحسن العسكري وقد شاهدها من أعلى الملوية.

ومهما تكن درجة الصدق في رواية الاخوة الثلاثة. فأن لسامراء سور آخر مبني بالآجر ظل ماثلا للعيان حتى سنة (١٣٥٦ هـ / ١٩٣٦م)، وقد أزيل تدريجيا كغيرة من المعالم التراثية والمباني القديمة التي تعرضت إلى التهديم أو التغيير بفعل التقادم وعوامل الطبيعة، والإهمال فضلا عن التطور العمراني الذي شهدته سامراء في العقود الأخيرة. ولم يبق منه اليوم شاهدا على هذا الأثر سوى جدار بسيط يبلغ طوله بضعة أمتار، كان يحمي المدينة ويجمع بين ثناياه محلاتها السكنية ودروبها وأسواقها ومساجدها ومشاهدها التي ساهمت في نمو المدينة وتطورها.

يتكون السور من عدة أضلاع غير منتظمة ترسم بعد تكاملها شكلا يميل إلى الاستدارة (الصورة –١). وقد قدر أحد الزائرين في سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م محيط سورها ربع فرسخ[١٢]، وقدر آخر محيطه بـ ٢كم[١٣], أما قطره في أحسن النقاط فلا يتجاوز ٦٨٠م. ويبلغ ارتفاعه حوالي ٧م معززا بتسعة عشر برجا موزعة عليه بانتظام.

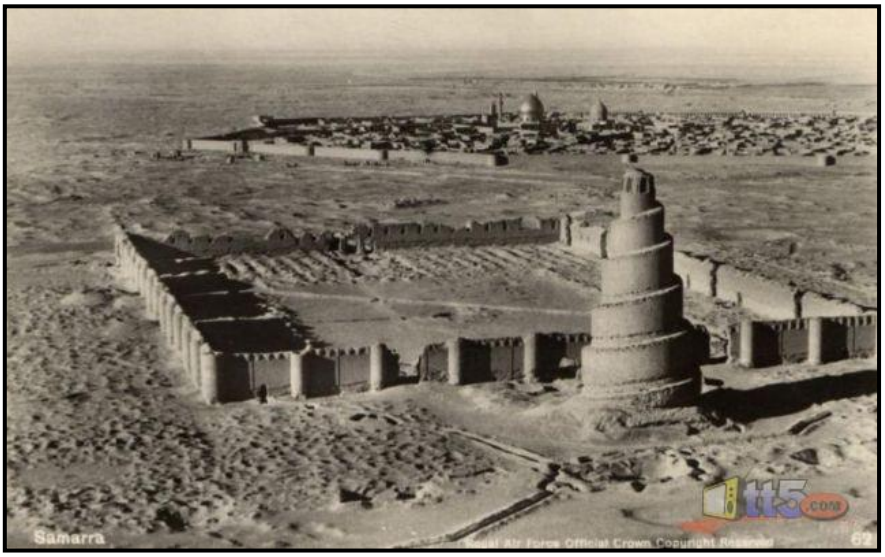

(الصورة – ١) صورة جوية للمدينة عام ١٩١٧م

وللمدينة في العصر الذي نؤرخ له أربعة أبواب متقابلة متجهة نحو الجهات الأربع، لكل باب اسمً يعرف به وهي: (باب القاطول ، وباب الناصرية ، وباب المطلوش ، وباب بغداد). وتعرف هذه الأبواب بأسماء محلية أخرى وأحيانا بأسماء العشائر القاطنه بجهتها أو القريبة منها(١٤).

إن أجمل من وصف السور المرحوم كاظم الدجيلي وهو شاهد عيان زار سامراء في بداية القرن العشرين ولخص مشاهداته بمقالة تتكون من عدة صفحات نشرها عام ١٩١١م في مجلة (لغة العرب)(١٥). وصف فيها أطلال سامراء العباسية وعرج على المدينة الحديثة وسورها واهم المساجد والمدارس فيها والقائمين عليها واستعرض أضرحتها لاسيما مرقدي الإمامين على الهادي والحسن العسكري (عليهما السلام). وفيما يتعلق بالسور فقد ذكر: يحيط اليوم بسامراء سور عظيم له أربعة أبواب كبار تكاد تكون متجهة نحو الجهات الأربع المعروفة، ولكل باب من هذه الأبواب اسم يعرف به وقوم من أقوامها يخرجون منه ويدخلون فالباب الذي عن يمينك يعرف (بالناصرية) وبعضهم يسميه (الحاوي) وهو باب (البو بدري والعشاعشة). والباب الذي عن شمالك اسمه الباب (المطلوش) والمطلوش بلسانهم المردوم. وكان مسدودا بالآجر ثم فتح عند ورود بعض شاهات العجم سامراء. وهذا الباب خاص بأعراب (البوعبد الرحمن). والباب الذي يكون وراءك يعرف بباب القاطون (بالنون وهو تصحيف القاطول باللام) وهو خاص (بالبونيسان والبو عباس). والباب الذي تراه أمامك يعرف بباب بغداد وهو باب (البو باز والبو عظيم).

وقد أشار الدجيلي إلى تاريخ بناء السور وذكر ما سمعه من علماء سامراء ومشايخها آنذاك وهو يأتي بروايتين الأولى تذكر أن باني السور ومعمره هو الميرزا زين العابدين السلماسي وذلك في حدود سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. وكانت النفقات التي صرفت على بناءه قد تبرع بها احد فضلاء الهند. أما الرواية الثانية فتذكر أن معمره هو السيد إبراهيم السيد محمد باقر الموسوي القزويني الحائري صاحب كتاب ضوابط الأصول واحد مشاهير علماء القرن الثالث عشر المتوفى في كربلاء بعد سنة

١٢٦٠هـ. وبعد أن سرد الدجيلي الروايتين عاد فرجح الأولى وقال هي الأقوى. ومما يؤكد ان السور مبني بأموال هندية، هو ما ذكره عبد العلي خان عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، بانه مبني بالآجر والجص من قبل محمد شاه الهندي وله ثلاثة ابواب ومعزز بابراج قوية(١٦).

ويبدو ان بناء السور قد أستغرق سنوات عديدة حيث يذكر جونز فيلكس انه شاهد عملية البناء فيه، وكانت جارية عند زيارته لسامراء عام ١٨٤٣م(١٧). وهذا التاريخ أكده سيف الدولة الذي زار سامراء عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م وكان قادما من ايران، وأُخبر آنذاك بان السور بني قبل عشرين عاما، باموال جاءت من الهند(١٨).

ويقينا أن سور سامراء في عام ١٨٢٠م، أي عند زيارة الرحالة الإيراني المنشي البغدادي، لم يكن مبنيا وقد وصف المدينة بأنها "طيبة الهواء كثيرا وفيها نحو ألفي بيت. ومن المزارات فيها مزار الأمام علي النقي والإمام حسن العسكري (عليه السلام) ومحل غيبة الإمام محمد المهدي. وفي كل سنه يبلغ زوار الشيعة من العرب والعجم نحو ثلاثين ألفا يأتون إلى هذه المشاهد للزيارة"(١٩).

إذاَ تزامن بناء سور مدينة سامراء مع أسوار بعض المدن العراقية المهمة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. حيث شهدت بعض المدن في هذه الحقبة وقبلها بناء أسوار كما شهدت إقامة قلاع عديدة توزعت في معظم مناطق العراق الحيوية. وقد اعتمد بناء بعضها على الآجر المعاد استعماله أو المنقول من المواقع الأثرية القريبة من تلك المدن ومنها سامراء التي شيدت فوق جانب من أطلال المدينة القديمة ومنها الجوسق الخاقاني وما جاوره من قصور ومنشآت كبيرة حيث كان الناس يستخرجون كل ما يصلح للبناء لاستعماله في تشييد البيوت والمباني على اختلاف وظائفها ومنها السور موضوع البحث.

أما دوافع بناء السور فيعزيها البعض إلى سعي السلطة والقائمين على المدينة وأضرحتها، حمايتها من البدو القاطنين بكثافة في الجانب الغربي من نهر دجلة، والذين طالما كانوا يهددون بنهب المدينة إذا لم تستجب الحكومة لمطالبهم. ليس هذا فقط بل

باستطاعة هؤلاء تدمير القناة التي تنقل ماء الشرب إلى المدينة في أي وقت شاءوا[٢٠]. كما كانت سامراء عرضه لهجمات الهماوند الأكراد أيضاً وقد دمروها في عام ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م[٢١]، فضلا عن الدوافع الأخرى المعروفة والتي تتمثل في حماية المدينة ومنشاتها الحيوية من أي اعتداءات خارجية، وفرض سلطة الأمن والنظام في داخلها. ويبدو ان تعاظم خطر الوهابيين وهجماتهم على النجف وكربلاء في مطلع القرن التاسع عشر قد شجع علماء سامراء ومشايخها الى جمع الأموال من أهل الخير وحث الناس على المساهمة في تحصين المدينة وحماية المراقد الشريفة.

وفي الموضوع نفسه، فقد ذكر الرحالة الانكليزي السير ولس بدج أمراً مهما أخر يتعلق بترميم السور وصيانته، إذ علم أثناء زيارته إلى سامراء عام ١٨٨٨م إن ما ينفق على إدامة السور يؤخذ من إيرادات العتبات المقدسة التي تعتمد على ما يجود به زوارها من مال[٢٢]. إذاَ لم تساهم الحكومة العثمانية في العراق في بناء سور سامراء كما ساهمت في بناء أسوار بغداد الغربية والنجف والبصرة والموصل، بل كان بناؤهُ بأموال الفضلاء بقصد الأجر والثواب، ومن إيرادات مشهد الإمام علي الهادي وحسن العسكري عليهما السلام.

وصف السور:

لقد وضع فيلكس جونز خارطة لمنطقة سامراء عام ١٨٤٦م أوضح فيها طبيعة مسار نهر دجلة وعين جملة من المواقع الأثرية، كما اشر أهم أطلالها التي كانت شاخصة آنذاك. ورسم المدينة الحديثة، سورها وشوارعها ومراقدها. بيد أن فيلكس جونز لم يراع الدقة فيما رسم، ورسمه كان تقريبياً لا يعكس واقع السور بدقة ولاسيما الشكل العام وعدد الأبراج التي جعلها خمسة عشر فقط. (المخطط –١)

(المخطط – ١) مخطط سامراء / عن جونز

لقد وصف سور مدينة سامراء الرحالة الانكليزي (سر وليس بدج) عام ١٨٨٨م وكان قادما إليها من الموصل بوساطة كلك عبر نهر دجلة حط به قرب جسرها القائم على مجموعة من القوارب. وأول معلم وصفه الرحالة هو السور الذي شاهده من بعيد يطوف بالبلدة الحديثة وهو سميك قدر ارتفاعه بين ١٨ . ١٩قدم. وقد خيل إليه أن السور المذكور حديث البناء لكنه في الوقت نفسه بحاجة إلى أصلاح في بعض أقسامة[٢٣].

وطبعي أن يحيط السور بسامراء من جميع جهاتها، إذ تبدو المدينة من بعيد مكتظة بالمنشات على اختلاف أشكالها ووظائفها، باستثناء الجانب الشرقي الذي تتخلله فسح كبيرة لعلها كانت تزرع في حالات الحصار. كما هو الأمر في البصرة[٢٤]. حيث تؤكد الصور الجوية الملتقطة في بداية الاحتلال الانكليزي للعراق عام ١٩١٧م خلو المناطق المحيطة بالمدينة من المنشات ماعدا الآثار العباسية التي تشاهد على شكل أطلال ومنها المسجد الجامع ومئذنته الملوية.(الصورة –٢)

(الصورة – ٢) صورة جوية لمركز المدينة عام ١٩١٧م

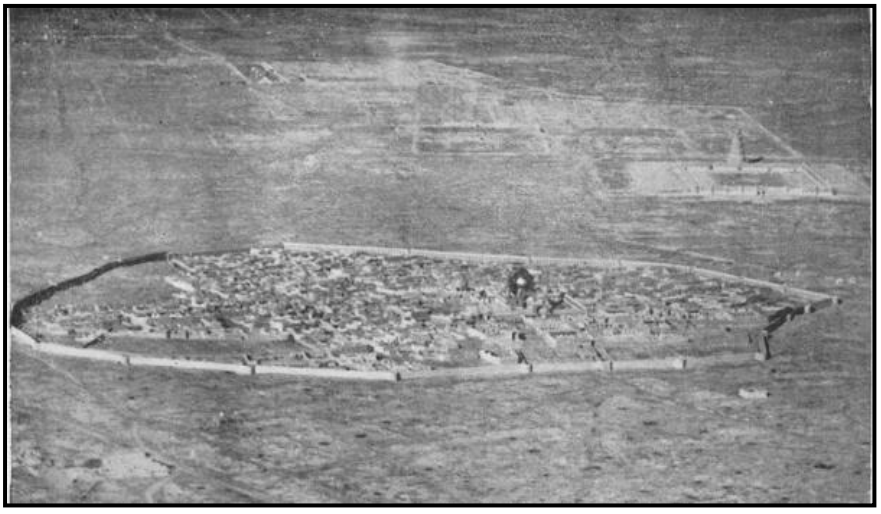

(الصورة –٣) صورة جوية لسامراء والمواقع المحيطة بها عام ١٩١٧م

كان لسامراء نصيب وافر في برنامج المسوحات العسكرية لبلاد الرافدين والذي ركز على مسح حوضي دجلة والفرات ضمن تقنية حديثة آنذاك في محاولة لإعداد خرائط أرضية لمختلف مواقع العراق لاسيما بغداد والمدن الأخرى المهمة وما حولها بهدف الحصول على بيانات جيوديسية (geodetic) واكتشاف مواقع أثرية ومعلومات

في مختلف المجالات العلمية الأخرى[٢٥]. وقد كشفت الصور الجوية الملتقطة بوساطة طائرة عسكرية في أول عهد الاحتلال البريطاني عام١٩١٧م عن تفاصيل دقيقة حول تخطيط المدينة ومعالمها واهم منشأتها المحصورة داخل السور مثل الأضرحة والمساجد الكبيرة المنتشرة في أحياء المدينة والشوارع الرئيسة والدروب. وكذلك خط السكة الحديد الممتد بين سامراء وبغداد وقد بدء العمل فيه عام ١٩١٢م فأنجز في عام ١٩١٤م[٢٦].(الصورة –٣)

وعلى الرغم من الاستدارة الواضحة في سور مدينة سامراء إلا أن بعض جهاته مبنية على شكل جدران مستقيمة، والحقيقة نحن نجهل سبب عدم انتظام الشكل الهندسي للسور، ولعل طبيعة الأرض المتموجة والآثار المتناثرة هنا وهناك، فرضت هذا الشكل من التخطيط. فضلا عن تباين كثافة البناء حول الضريح، فعلا سبيل المثال هناك انتشارً واسعً للبيوت الممتدة في الجهتين الشمالية والغربية، حيث يبدو السكن في هذه الأنحاء مزدحما والبيوت فيها تشغل نسبة كبيرة من مساحة المدينة، في حين تقل كثافة البناء في الجهة الجنوبية الشرقية. ولعل هذا التوزيع قد فرض معيارا تخطيطيا أو اقتصاديا معينا عند تنفيذ بناء السور. لاسيما وان السور يعد متأخرا قياسا لعمر المدينة ومنشاتها الداخلية. ومن المفيد ذكره إن السور شبه دائري يذكرنا بتخطيط مدينة (الحضر) الأثرية الواقعة جنوب غرب الموصل وسورها شبه دائري أيضا مبني بالحجارة، ومعزز بأبراج دفاعية يتقدمه خندق.

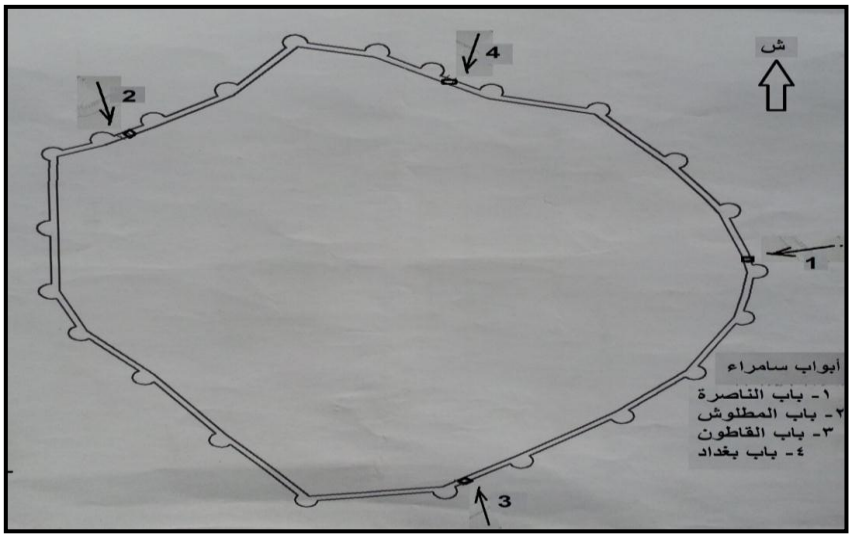

(المخطط – ٢) سور سامراء وأبوابها / رسم الباحث

يمتاز سور سامراء بقلة أبراجه الساندة له من الخارج، وتباعد بعضها عن البعض في جهات وتقاربها في جهات أخرى أي عدم انتظام توزيعها واختلاف المسافات بينها (المخطط – ٢). وإسناد السور في بعض النقاط كان يعتمد على ما يبدو على البيوت المبنية بلصقه فهي تساهم في دعمه وحمايته من السقوط، حيث شكلت جدران بعض البيوت المبنية عليه بشكل عمودي مساند ساهمت في تقويته ومقاومته لعوادي الزمن.

وتبدو أبراج السور من خلال الصور الجوية التي خلصت إلينا صلدة غير مجوفة ولعلها كانت مصممة لتحمل على نواصيها مدافع تستعمل لحماية المدينة من المهاجمين في حالات الحصار. كما إن الأبراج تبدو من خلال الصور نفسها خالية من الستائر التي تحيط عادة بالبرج من الأعلى بقصد حماية المقاتلين من نيران الأعداء وسهامهم. وعددها يربو على أربعة وعشرين برجا، وهي نصف دائرية مبنية

بالآجر والجص كسائر مداميك السور ومداخله. والحقيقة لا ندري إذا كان السور في سامراء مزود بمزاغل كما هو شان الأسوار في المدن العراقية الأخرى أم لا ؟، لان الصور السالفة الذكر لم تبين لنا تفاصيل السور بوصفها ملتقطة من بعيد ومن الأعلى. كما أن المزاغل التي تتوزع عادة في أعلى الأسوار لم تظهر في الجزء المتبقي من السور ولعلها اختفت بسبب عبث الناس بهذا الأثر والتقادم والإهمال. بيد إن هناك بقايا الشرافات التي كانت تتوج السور وهي على الأرجح كتل مربعة أو مستطيلة موزعة بأبعاد متساوية لتحقق وظيفتها في حماية المقاتلين الذين يقفون خلفها للدفاع عن المدينة. فضلا عن وظيفتها الجمالية.

(الصورة . ٤) بقايا سور سامراء من الداخل

لم يبق من السور اليوم سوى جزء بسيط مازال قائما في قلب المدينة مبني بالاجر والجص، طوله لايتعدى بضعة امتار، وثخنه عند القاعدة يربو على المتر ويقل ثخنه في الثلث الأعلى ليصبح ٦٠سم. وبسبب عمليات الدفن قل ارتفاعه الأصلي إلى خمسة أمتار تقريبا.(الصورة . ٤) ويذكر الحسني ان مديرية الاثار العامة قد هدمت الباب الغربي عام ١٩٣٦واستعملت مادته في بناء دائرة حكومية ودار بلدية ومستشفى ومدرسة ونادي ودائرة للبرق والبريد، ثم هدمت الباب الجنوبية وشيدت منه مجزرة للمدينة[٢٧].

اما الباب الشمالي المعروف بباب بغداد فقد أتخذته مديرية الاثار العامة في عام ١٩٣٨م متحفا محليا عرضت فيه بالدرجة ألأولى أمثلة من الآثار المستخرجة من حفريات المديرية في خرائب سامراء[٢٨]. والمدخل الشمالي مازال قائما حتى الوقت الحاضر ومستغلا من قبل دائرة الآثار مخزنا لحفظ بعض الخزانات الخاصة بعرض الأثار والكثير من اللوازم والأدوات، بعد أن أضيفت اليه قاعات وحجرات عديدة ولاسيما من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية. ومن الملاحظ ان الجزء القديم من باب بغداد المبني في العصر العثماني قد تعرض الى صيانة مرات عدّة، مما غير من شكل البناء الأصلي وساهم في طمس بعض عناصره الأصلية.(الصورة – ٥)

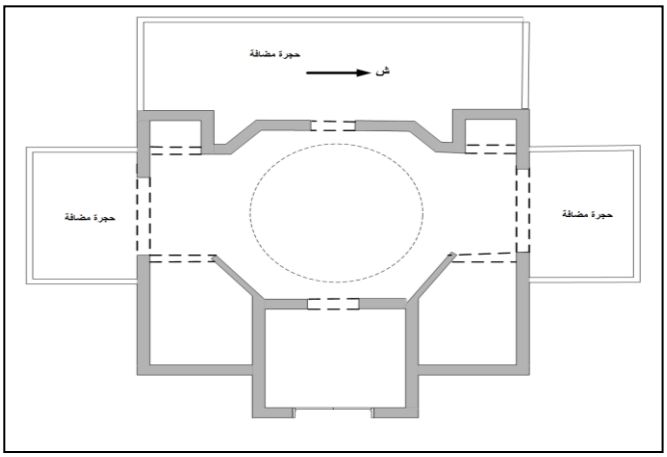

(المخطط – ٣)

مخطط المدخل الشمالي الأصلي ومعه بعض الاضافات / رسم الباحث

وصف المدخل الشمالي:

حاولنا عند توثيق المدخل الشمالي تتبع الجدران الأصلية وتأشير جانب من المضاف والمجدد. لذلك أقتصر الرسم على البناء الذي يعود فعلا للعصر العثماني. ومعه بعض القاعات المضافة في الثلاثينيات من قبل دائرة الآثار وهي مسقفة بالآجر والحديد (الشيلمان). والحقيقة يمكن تتبع الجدران الأصلية وفرزها بسهولة من خلال ثخنها الذي يربو على ٦٠سم، أو من خلال مواد البناء ومنها الآجر المربع وأبعاده ٢٠×٢٠×٥سم. (المخطط – ٣)

والمدخل في الأصل مصمم على شكل كتلة كبيرة من البناء يتوسطها فضاء واسع ثماني الشكل تقريبا مسقف بقبة منخفضة يربو أرتفاعها على ٦م. تقوم على أربع مثلثات ركنية كبيرة مشغولة بأشكال معينية مرتبة على شكل صفوف ساهمت في تحويل القاعدة المربعة الى دائرة كي تتطابق حافتها العليا مع حافة القبة المنخفضة قليلا عن نصف الدائرة (الصورة – ٦). والقبة تقوم على عقود مدببة ترتكز على أكتاف فخمة ساهمت في أطالة عمر البناء ومقاومته للتقلبات الجوية وعوامل التعرية.

تتوزع حول القبة من الجهتين الشرقية والغربية دخلات على شكل حنايا كبيرة وحجرات مسقفة بأقبية منخفضة مبنية بالآجر والجص. ولهذه الحجرات مداخل تعلوها عقود مدببة (الصورتان – ٧، ٨)، ويقينا ان وظيفة هذه الحجرات كانت معدة لراحة الجند المكلفين بحراسة أسوار المدينة والذين يسهرون على حفظ الأمن فيها من خلال مراقبة أبوابها وتنظيم الدخول اليها أوالخروج منها، وكان بعضها مخصص لخزن أسلحة الزوار الذين يأمون المدينة كل يوم بقصد التجارة أو لزيارة الامامين علي الهادي وحسن العسكري رضي الله عنهما.

إن أكبر الحجرات مساحة تلك التي تربو أبعادها على (٣.٥٠م× ٣م) وهي تتوسط الضلع الشرقي، ويبدو أنها كانت مزودة بمدخل يعلوه عقد مدبب ينفتح على الطريق العام الذي يقود إلى المدينة عبر مدخلها الشمالي. وقد أغلق المدخل من قبل دائرة الآثار إثر تغيير وظيفة المبنى كما أسلفنا.

(الصورة – ٥) المخل الشمالي من الخارج

(الصورة – ٦) حنايا القبة من الداخل

(الصورة – ٧) مدخل تحت القبة متوج بعقد مدبب

(الصورة – ٨) مدخل إلى أحد الحجرات

الخلاصة:

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج يمكن تلخيصها بالنقاط الأتية:

- إن أقدم التحصينات التي شهدتها مدينة سامراء الحديثة كانت عبارة عن سور من طين وصف في القرن السادس عشر بانه شاهق الارتفاع وله ابواب.
- توصلت الدراسة إلى أن باني السور ومعمره هو الميرزا زين العابدين السلماسي وذلك في حدود سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. وكانت النفقات التي صرفت على بنائه قد تبرع بها أحد فضلاء الهند. وما ينفق على إدامتة يؤخذ من إيرادات العتبات المقدسة التي تعتمد على ما يجود به زوارها من مال.
- أما دوافع بناء السور فقد تلخصت بسعي السلطة والقائمين على المدينة وأضرحتها، حمايتها من البدو القاطنين بكثافة في الجانب الغربي من نهر دجلة، وفرض سلطة الأمن والنظام في داخلها. فضلا عن الخوف من هجمات الوهابيين التي طالت النجف وكربلاء في مطلع القرن التاسع عشر.

- سامراء كغيرها من المدن العراقية الأخرى أعتمد بناء سورها على الآجر العباسي المعاد استعماله أو المنقول من المواقع الأثرية القريبة ومنها الجوسق الخاقاني وما جاوره من قصور ومنشات كبيرة.
- حاول الباحث في وصف المدينة وتحديد معالمها الأعتماد على ما توافر من صور جوية وخرائط أرضية عن طريق برنامج المسوحات العسكرية لبلاد الرافدين في أول عهد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٧م وما تمخض عن ذلك من تفاصيل دقيقة حول تخطيط المدينة ومعالمها واهم منشأتها المحصورة داخل السور مثل الأضرحة والمساجد الكبيرة المنتشرة في أحياء المدينة والشوارع الرئيسة والدروب.
- حاولت الدراسة رسم صورة لواقع السور وشكله الهندسي غير المنتظم، وترجيح الأسباب التي جعلته مستقيما في بعض الجهات. ومنها على سبيل المثال طبيعة الأرض المتموجة التي أقيمت عليها المدينة والآثار القائمة هناك. وتباين كثافة البناء حول الضريح.
- وفيما يخص شكل السور وطبيعة بنائه فهو شبه دائري يذكرنا بتخطيط مدينة (الحضر) الأثرية الواقعة جنوب غرب الموصل وسورها شبه دائري مبني بالحجارة ومعزز بأبراج دفاعية يتقدمه خندق. وسور سامراء معزز بابراج يربو عددها على أربعة وعشرين برجا وهي نصف دائرية مبنية بالآجر والجص كسائر مداميك السور ومداخله.
- والسور يمتاز بقلة أبراجه الساندة له من الخارج وعددها أربع وعشرون برجاً، وعدم انتظام توزيعها واختلاف المسافات بينها. وإسناد السور في بعض النقاط كان يعتمد على البيوت الملاصقة له، فهي تساهم في دعمه وحمايته من السقوط، وهي نصف دائرية صلدة غير مجوفة ولعلها كانت مصممة لتحمل على نواصيها مدافع تستعمل لحماية المدينة من المهاجمين في حالات الحصار.
- لم يبق من السور اليوم سوى جزء بسيط مازال قائما في قلب المدينة مبني بالاجر والجص، طوله لايتعدى بضعة امتار. فضلا عن احد المداخل المعروف بباب بغداد

وقد أتخذته مديرية الاثار العامة في عام ١٩٣٨م متحفا، ومازال مستغلا من قبل دائرة الآثار مخزنا لحفظ الأثار واللوازم والأدوات. ولأهمية هذا البناء العثماني حاولنا توثيقه بدراسة وصفية معززة بالرسوم والصور. وتاشير الأضافات الطارئة علية والمتمثلة بالقاعات المسقفة بالشيلمان وهي تعود إلى فترة ثلاثينيات القرن الماضي.

المصادر والمراجع:

- أحمد عبد الباقي، سامرا عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٨٩م، ج١.
- بهنام أبو الصوف، التنقيب في تل الصوان، سومر، ج١و٢، العدد٢٤، سنة ١٩٦٨م.
- بدج، السير وليس، رحلات إلى العراق ، نقله إلى العربية فؤاد جميل، ج١، مطابع دار الزمان، بغداد، ١٩٦٦.
- جمال بابان، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية، مطبعة الأجيال، ط٢، بغداد، ١٩٨٩م، ج١.
- سعدي إبراهيم الدراجي، "تحصينات مدينة البصرة في العصر العثماني" دور البصرة في التراث العلمي العربي، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٩٠.
- السير توماس وأخرون، العراق في رحلة الاخوة شيرلي سنة ١٥٩٨، او رحلة الاخوة الثلاثة (السير توماس، والسير انتوني، والسير شيرلي)، ترجمة انيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٥، السنة الثانية، ١٤٣٤. ٢٠١٣م.
- سيف الدولة، رحلة سيف الدولة إلى العراق ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، منشورة ضمن كتاب العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة محمد الشيخ هادي الاسدي، مطابع شركة مجموعة العدالة للصحافة والطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٠م.

- الصابي، أبو الحسن الهلال (ت ٤٤٨هـ)، تحفة الأمراء في تاريخ الزوراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، (د. ت).
- طاهر العميد، العمارة العباسية في سامراء في عهدي المعتصم والمتوكل، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، ١٩٧٦م.
- الطبري، محمد بن جرير(ت٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧هـ.
- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين أحتلالين، م٨، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٤.
- عبد الرزاق عباس حسين، نشاة مدن العراق وتطورها ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٧.
- عبد العلي خان، رحلة عبد العلي خان (اديب الملك) سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، ضمن كتاب العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة محمد الشيخ هادي الاسدي، مطابع شركة مجموعة العدالة للصحافة والطباعة والنشر، بغداد ، ٢٠١١.
- عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢، ج٢.
- كاظم الدجيلي، ماذا يرى اليوم في سامرآ، لغة العرب، ج٤، السنة الأولى، شوال ١٣٢٩هـ، تشرين أول ١٩١١م.
- الكركوكلي، رسول، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، مطبعة كرم، بيروت، (د.ت).
- لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية جعفر الخياط، مطبعة أركان، بغداد، ١٩٨٥.
- المنشي البغدادي، رحلة المنشي البغدادي الى العراق، ترجمة عباس العزاوي، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠٠٨.

- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦)، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٦،ج٣.
- أليعقوبي، احمد بن أسحاق (ت٢٩٢هـ)، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ.

-Felix Jones,J, "Journal of a steam – trip to the north of Baghdad, ",Selection from the records of the Bombay government, Bombay, 1867.
-G.A. Beazeley, Aerial Oblique of Samarra, in Beazeley "Surveys I Mesopotamia During the War", *The Geographical Journal*, Vol. 55, No. 2 (Feb. 1920).

الهوامش :

[١] – عرف ياقوت الحموي(ت ٦٢٦هـ) سامراء بانها بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً، وفي أسمها عدة لغات منها سامُراء ممدودة، وسامُرا مقصور، وسرُ من رأ مهموز الآخر، وسُر من را مقصور الآخر، وقد خففها الناس فقالوا سامرُاء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٦،ج٣، ص١٧٣.

[٢] – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، دار التراث، بيروت،١٣٨٧هـ،، ص١٧.

[٣] – احمد عبد الباقي، سامرا عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ١٩٨٩م، ج١، ص٢٨.

[٤] – الحميري، محمد بن عبد الله (ت٩٠٠هـ)، الروض المعطار في خبر اقطار، تحقيق أحسان عباس، دار السراج، ط٢، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٠٧.

[٥] – أليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ، ص٦٤.

[٦] – الصابي، تحفة الأمراء في تاريخ الزوراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة الأعيان، (د. ت)، ص١٤٤

الكركوكلي، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، مطبعة كرم، بيروت، (د.ت)، ص١٩٩.

[٧] – طاهر العميد العمارة العباسية في سامراء في عهدي المعتصم والمتوكل، منشورات وزارة الاعلام، ١٩٧٦م، ص٦١-٦٢.

[٨] – بهنام أبو الصوف، التنقيب في تل الصوان، سومر، ج١و٢، العدد؟، سنة ١٩٦٨م، ص٣٧-٣٨.

[٩] – ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت ١٩٥٦،ج٣، ص١٩.

[١٠] – تذكر كتب التاريخ إن أول من اهتم بمرقد العسكريين الأمير ناصر الدولة الحمداني الذي أمر بإقامة بناء عام٣٣٥هـ/٩٤٤م ويستشف من أخبار البناء هذا انه كان يتألف من غرفة ذات جدران ضخمة عليها قبة، وصادف أن احترقت أبنية الحضرة العسكرية فأمر الخليفة العباسي المشهور المستنصر بالله بتجديدها واهتم بسرداب الغيبة أيضا , ومثل بقية أبنية الروضات و المشاهد تعرضت الروضة العسكرية إلى ترميمات وتجديدات وإضافات وتوسيعات متعددة ومتتالية, وقد أثرت هذه العمليات على طابع معالمها الأصلية، والروضة الحالي تعود الى عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م. عيسى سلمان وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق، ج٢، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢، ص١٩٦.

[١١] – السيرتوماس وأخرون، العراق في رحلة الاخوة شيرلي سنة ١٥٩٨، او رحلة الاخوة الثلاثة (السير توماس، والسير انتوني، والسير شيرلي)، ترجمة انيس عبد الخالق محمود، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٣٥، السنة الثانية ١٤٣٤. ٢٠١٣م، ص٥٥.

[١٢] – عبد العلي خان، رحلة عبد العلي خان (اديب الملك) سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م، ضمن كتاب العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة محمد الشيخ هادي الاسدي، مطابع شركة مجموعة العدالة للصحافة والطباعة والنشر، بغداد ، ٢٠١١، ص٣٢.

[١٣] – طه باقر و ففؤاد سفر، المرشد الى مواطن الاثار والحضارة، الرحلة الثانية، مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد، بغداد، ١٩٦٢، ص٨.

[١٤] – تختلف اسماء ابواب سامراء عند الباحثين وهذا الاختلاف مرتبط بالمراحل التاريخية واهم الحوادث التي شهدتها المدينة. فالباب الشمالي يسمى الناصرية نسبة الى ناصر الدين شاه الذي زار سامراء عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م واقام مهرجانا عند الفسحة المقابلة لهذا الباب. والباب الثاني من جهة القبلة ويسمى باب النواب لان الاراضي المجاورة له تعود للنواب نواز مشير علي خان اللاهور. والباب الثالث يقع في جهة الغرب ويعرف بباب الساقية نسبة الى الساقية التي كانت تمر من هذا الباب وتصب قرب الصحن الشريف. أما الرابع فيعرف بباب الملوية حيث

يقابل الجامع العتيق وملويته العالية. جمال بابان، أصول أسماء المدن والمواقع العراقية، مطبعة الأجيال، ط٢، بغداد، ١٩٨٩م،ج١، ص١٤٩.

[١٥] – كاظم الدجيلي، ماذا يرى اليوم في سامرآ، لغة العرب، ج٤، السنة الأولى، شوال ١٣٢٩هـ، تشرين أول ١٩١١م، ص١٣٩–١٤٠.

[١٦] – عبد العلي خان، المصدر السابق، ص٣٢.

[17] – Felix Jones,J, "Journal of a steam – trip to the north of Baghdad, ",Selection from the records of the Bombay government, Bombay, 1867, P.12.

[١٨] – –سيف الدولة، رحلة سيف الدولة إلى العراق ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، منشورة ضمن كتاب العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة محمد الشيخ هادي الاسدي، مطابع شركة مجموعة العدالة للصحافة والطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٠م، ص ٨٤

[١٩] – المنشي البغدادي، رحلة المنشي البغدادي الى العراق، ترجمة عباس العزاوي، دار الوراق للنشر، بيروت ٢٠٠٨، ص١٣٨.

[٢٠] – Felix Jones,J, Op.cit, P.12.

[٢١] – عباس العزاوي، تاريخ العراق بين أحتلالين، م٨، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٤، ص٥٤.

[٢٢] – بدج، السير وليس، رحلات إلى العراق ، نقله إلى العربية فؤاد جميل، ج١، مطابع دار الزمان، بغداد ١٩٦٦ ص٣٦٣.

[٢٣] – بدج، السير وليس، رحلات إلى العراق ، نقله إلى العربية فؤاد جميل، ج١، مطابع دار الزمان، بغداد ١٩٦٦ ص٣٦٣.

[٢٤] – السور في البصرة ليس حول منشات المدينة وحدها بل كان يضم داخله الحقول والبساتين ومساحات شاسعة من الأراضي الزراعية مما ساعدها على الصمود مرات عديدة أثناء الحصار. ولاسيما عند حصار كريم خان الزند لها عام ١٧٧٥م. حيث كان السكان داخل المدينة لا يخافون الجوع أو الحرمان لوفرة الغذاء من الحاصلات الزراعية كالحبوب والفواكه والخضر. للمزيد انظر، سعدي إبراهيم الدراجي، "تحصينات مدينة البصرة في العصر العثماني" دور البصرة في التراث العلمي العربي، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ١٩٩٠، ص٤٠٦.

[25] - G.A. Beazeley, Aerial Oblique of Samarra, in Beazeley "Surveys in Mesopotamia During the War", *The Geographical Journal*, Vol. 55, No. 2 (Feb. 1920)

[٢٦] – لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية جعفر الخياط، مطبعة أركان، بغداد ، ١٩٨٥، ص ٣٨٦.

[٢٧] – عبد الرزاق عباس حسين، نشاة مدن العراق وتطورها ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٧، ص٧٠

[٢٨] – طه باقر و ففؤاد سفر، المرشد الى مواطن الاثار والحضارة، الرحلة الثانية، مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد، بغداد، ١٩٦٢، ص٨.